الأحد 2021/04/11
السنة 43 العدد 12027
العرب

الميديوقراطيا نظام أفرز نخبوية من نوع جديد

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

غالبا ما نسمع ونقرأ عن غياب النخبة أو فشلها في أداء دورها. فما هي النخبة ومن يمثلها؟ هل نعني بها النخبة السياسية أم الثقافية؟ هل ترغب الأولى حقا في تغيير ما يجري في بلداننا نحو الأفضل، أم أنّها لا تروم سوى تحقيق مصالحها، وتمكين أتباعها من مراكز النفوذ والسلطة، ولو على حساب مصير البلاد؟ وهل تملك الثانية قدرة على الدّفع إلى حل الصّعاب، وقوة الضغط على الحكام، أم أن دورها يقتصر على نقد الأوضاع القائمة والتنديد بما يحصل من انحرافات في تسيير شؤون الدولة؟

مخطئ من يؤمن بوجود نمط حياة عام تأخذ فيه النخب السياسية والثقافية صوت الشعب بعين الاعتبار

يعرّف معجم لاروس النخبة بكونها مجموعة أشخاص يحظون داخل مجتمع ما بمكانة بارزة ناجمة عن خصال ذات قيمة على المستوى الاجتماعي، كالنخبة الثقافية والنخبة السياسية. وهي في وجه من الوجوه شريحة من الشعب لها مكانة في قمة السلم التراتبي، وهي التي تمسك عادة بالسلطة.

ويفترض مصطلح النخبة مبدأ الأفضلية والاختيار أو الانتخاب. والعبارة في مقابلها الفرنسي مستمدة من اللاتينية electus اسم مفعول من الفعل eligere ومعناه اقتطف أو اختار. ومنها نتجت فكرة التفوق، لأن من نختاره هو الأفضل والأصلح والأحسن، أو هكذا يفترض أن يكون. نجد ذلك حتى في الأنظمة الديمقراطية، والحال أن الديمقراطية، نظريا على الأقل، تشترط المساواة بين سائر المواطنين، فالمساواة، طبيعية أو مدنية أو سياسية أو اجتماعية، هي مطمح كل المجتمعات ولكن لا الثورة الفرنسية ولا الثورة الروسية أفلحتا في تحقيق ذلك.

في الغرب مثلا، صارت الجدارة méritocratie مقدّمة على المساواة، لأن المجتمعات الغربية صاغت تقنيات اصطناعية للترقي الاجتماعي: تقنيات مادية قائمة على الممتلكات، وتقنيات ثقافية قائمة على العلم والمعرفة. وصار الإفراط في الاستئثار بالوسائل الغايةَ المنشودة، ما جعل تلك التقنيات تتجمع بين أيدي النخبة (التي تملك المال أو المعرفة) فمن يملك الوسيلة يملك الغاية.

ولم يخل مفهوم النخبة، برغم بساطته الظاهرة، من تباين في تحديده، فهذه عالمة الاجتماع الفرنسية نتالي هاينيش مثلا تتحدث عن نظريتين ومفهومين للنخبة، مفهوم أحادي يعتبر النخبة فئة اجتماعية أحادية تستند إلى وظيفة السلطة، وهو مفهوم يتبناه ماركس وتشارلز ورايت ميلز وبورديو؛ ومفهوم تعددي تفقد فيه النخبة صفتها الأساسية لتصبح "نتوءًا" داخل عدة فئات اجتماعية، حيث تتميز برصيدها البشري أو برصيدها الثقافي.

وبصرف النظر عن تعدد المفاهيم يمكن القول إن النخبة لغةً هي المختار من كل شيء، يصحّ ذلك على مستوى فئة اجتماعية، أو قطاع مهني أو صناعي أو مالي أو سياسي أو ثقافي، فالمقصود بها أشخاص لهم في مجال معيّن مركزٌ متقدّم حازوه بفضل تحصيلهم العلمي أو ثرائهم أو انتمائهم إلى القوى المتنفّذة والعائلات الحاكمة.

وسواء استُعملت بصيغة المفرد "نخبة" أو بصيغة الجمع "نخب" فهي تعني "قشدة" القوم في مختلف المجالات، وعادة ما توضع في مقابل كتلة صمّاء من الأفراد، أو السواد الأعظم من المواطنين الذين ينتمون إلى طبقات شعبية، تقع بالضرورة في أسفل السلّم الاجتماعي.

ولكنّها تأخذ عندنا معنى السائس والمسوس، حسب التقسيم الذي ارتآه عالم الاجتماع الإيطالي فيلفريدو باريتو، بين نخبة حاكمة ودهماء محكوم فيها.

فهل تنطبق صفة "نخبة" على من يحكمون تونس اليوم، وأغلبهم ليس له ما يميزه عن الدهماء سوى انتمائه إلى حزب وصل إلى السلطة بالرشوة وشراء الذمم والتلاعب بالصندوق واستغلال جهل العامة وفقرها؟ فلا تفوّقَ دراسيّا لأفرادها، ولا فكرَ سياسيّا، ولا مشروعَ تنميةٍ لإخراج البلاد مما تعانيه، ولا كاريزما تؤهلهم كي يُحسَبوا على النخبة. وقد رأينا واحدا ممن يزجّ بهم تجوّزًا ضمنها، بعد أن عُيّن وزيرا للخارجية في استهتار واضح بالأعراف الدبلوماسية، لا يعرف عاصمة تركيا، ولا طول سواحل بلاده، بل لا يفرّق بين كلام الجاحظ وكلام الله، رغم انتمائه إلى تنظيم ديني إخواني.

ولئن اتُّفِق في مرحلة ما على الاستعانة بذوي الخبرة في المجالات العلمية والتقنية والمالية، أولئك الذين أطلِقت عليهم صفة "التكنوقراط"، فراج الحَديث عن نخبوية الـ"ميريتوقراطيا" أي حكم ذوي الجدارة والاستحقاق، وسرعان ما بان فشلهم هم أيضا، لأنهم لم يتعودوا على تسيير مفاصل دولة ينهشها الفساد في كلّ زاوية؛ فإنّ ما آل إليه الأمر الآن يصحّ فيه ما وصفه الكندي ألان دونو بالـ"ميديوقراطيا" أي نظام الرداءة، الذي أفرز نخبوية من نوع جديد، لا يجمعها سوى الجهل والفساد وضيق الأفق والدجل بكل معانيه.

الأولى أي نخبوية الجدارة أو الذكاء، تفترض حيازة أفرادها صفات مخصوصة، أهمها قوة الشخصية، والنباهة، والفكر الوقّاد، وبُعد النظر، فضلا عن التحلي بالأخلاق الفاضلة وإيثار الصالح العام على المنفعة الشّخصية، على غرار ما تصوّره أفلاطون، أوّل من وضع فلسفة سياسية عن النخب، حيث الفيلسوف/ الملكُ والحرّاس هم الشخصيّات المفاتيح لنخبة مهمتها ضمان العدل في المدينة وفرض احترام القوانين.

أما الثانية أي نخبوية الرداءة، فهي عنوان منظومة سياسية تشجع الرديئين، وتعلي من شأن من ليس لهم كفاءة، وبذلك تغيب الجدارة ليحل محلها تفضيل الأقارب والأنصار والموالين في مفاصل الدولة، وتمكينهم من شتى الوظائف دون خبرة ولا مؤهلات.

المثقفون، أو جانب منهم على الأقلّ، يصنَّفون هم أيضًا ضمن النخبة، ولكنهم ليسوا كلهم يعملون على التغيير ويدفعون إليه، إذ منهم فئة أرستقراطية تكتفي بمتابعة الأوضاع من أبراجها العاجية ونقدها في كتب ومجلات لا تلامس من يملك القدرة على قلب الطاولة وما عليها على رؤوس الحكام، أي الشعب. ومنهم فئة تناضل بالفكر والمراس، للتنبيه إلى الأخطاء، والتحذير من مغبة اتباع سياسات تضرّ باقتصاد البلاد، ولكن دورها، على أهميته، يظلّ قاصرا عن تغيير مجريات الأحداث، وإيقاف الانحدار إلى الهاوية.

أولا، لأنهم يتوسلون بخطاب يتوجه إلى النخبة السياسية أكثر مما يتوجه إلى الطبقات الشعبية، ويميلون إلى المكتوب أكثر من المنطوق. فما وزن خطاب ثقافي متعال، لا تفهمه الغوغاء، أمام قفّة انتهازي يغري بها أهل الجوع لتحقيق مأرب، ورشاوى مهرّب، ووسائل إعلام محترفِ تهرّبٍ جبائيّ وتبييض أموال؟

ثانيا، لأنهم لا يملكون الوسائل المادية الكفيلة بتحقيق حضور أوسع، وإيصال أصواتهم إلى كل الشرائح المجتمعية، ومن لم يملك عصب الحرب لا يحلم بكسب مآلها. ومن يملك الوسيلة يملك الغاية، كما أسلفنا.

ثالثا، بعض من يتصدر المشهد اليوم في مكافحة الفساد وفضح السياسات العقيمة، التي تخرب اقتصاد البلاد ومكتسباتها المادية والقانونية والتشريعية، كان يضفي على استبداد النظام البائد شرعية، ويغمض عينيه عن تجاوزات العائلة الحاكمة، ونهبها المال العام، واستئثارها بكل الصفقات. فأي مصداقية بعدئذ لمن كان بوق دعاية لذلك النظام، يرسم تصوره الثقافي، ويحرر خطبه، ويحظى بكرمه؟

ولمّا كان النّظام الديمقراطي يقوم على التمثيل النيابي الذي يمر عبر الاقتراع، فإن الحكم لا تقرره النخب المثقفة، بل عامة الشعب التي لا تميز أحيانا بين الغث والسمين، بين صاحب المشروع الذي يمكن أن يساعدها على الخروج من ضيقها، وبين من يزيّن لها المستقبل فلا تظفر منه بغير السراب. ففي غياب الوعي، من الطبيعي أن تفوق أصوات عشرة حمير صوت عالم، كما قال أينشتاين، ولنا في سيرة أكاديمي تونسي تقدّم مرة لمنصب رئيس شعبة دستورية أيام المخلوع، فمُني بالهزيمة أمام رجل أمّيّ، إذ كان الأكاديمي المثقف يخاطب عقول العامّة، بينما كان منافسه الأمّي يخاطب بطونهم، بذبح العجول والخرفان وإقامة المآدب.

وفي كل الأحوال، مخطئ من يؤمن بوجود نمط حياة عامة تكون فيه النخب السياسية والثقافية مهيأة لأخذ صوت الشعب بعين الاعتبار، وترجمة ذلك بكل شفافية في شكل قوانين وسياسات عامّة. لأن النخب، في شتى عناوينها، تعتقد أن الشعب ليس مطبوعا على إسماع صوته، بل جُبل على أن يكون محطّ أنظار النخبة بفروعها وقت الحاجة، فهي التي تزعم أنها تنير له واقعه في يومه وغده، ثمّ توجهه الوجهة التي ترتضيها له. قد توهمه، في هذه المناسبة أو تلك، بأنها تسمع شكاواه ومطالبه، ولكنها في الواقع تجد ألف علّة للتنصّل من وعودها، وتجاهُلِ ما يريده الشعب فعلا، لكونه في تصور تلك النخب غوغاء مشتتة، قصيرة النظر، عديمة الكفاءة، لا تعرف ما تريد بالضبط، ولا ترتيبَ أولوياتها بشكل عقلانيّ.

وإذا كان ماركس يفسر تلك الظاهرة اقتصاديا، ويرى أن الإمساك برافعة الآلة الاقتصاديةِ يمنح الطبقةَ التي تمسكها السيطرةَ على جهاز الحكم، فإنّ فيلفريدو باريتو يعتقد أن كل المجتمعات نخبوية، ولا تختلف إلا في الأسلوب؛ فالنخب، سواء لجأت إلى الحيلة أو العنف، لا غاية لها إلا تكريس الهيمنة. بل إن الديمقراطية البرلمانية في رأيه ليست سوى خدعة موصوفة لما يسميه "حكومة أثرياء وغوغائية".

حتى الرداءة لها نخبتها (لوحة للفنان فؤاد حمدي)

قضية حق شخصيّ ضد أفلاطون

سفيان رجب
شاعر تونسي

بعد عشرين سنة من دخول الألفية الثالثة، جاء أفلاطون من بيته البعيد في التاريخ، ليزور مدينته الفاضلة. فلم يجد فيها سوى الشعراء. كلّ سكانها العاقلين تحوّلوا شعراء.

الفلاسفة الذين تركهم يزنون المنطق بميزان العقل، وجدهم يشعلون المصابيح في وضح النهار، ويبحثون كلّهم عن الإنسان.

الساسة الذين تركهم يخطّون دستور الإنسان، وجدهم يتجوّلون في سوق الكلام، يبيعون للعطاشى لفظة ماء. يبيعون للجوعى لفظة خبز. يبيعون للاجئين لفظة بيت، يبيعون للمنفيين لفظة وطن، يبيعون للتائهين لفظة طريق، يبيعون لليائسين لفظة سماء، يبيعون للمتعبين لفظة سرير، يبيعون للحمقى لفظة فردوس.. كلّ الألفاظ كانت متوفرة في سوق الكلام، وكان الناس يأخذون ما اشتروه من ألفاظ، ويذهبون سعداء إلى حيواتهم.

كلّ سكان المدينة أصبحوا شعراء: النجّارون مهمتهم الآن تحطيم الأبواب وليس صناعتها. الحلاقون مهمّتهم الآن زرع الشعر وليس قطعه. الخياطون مهمتهم الآن تمزيق السراويل وليس خياطتها. الطبّاخون مهمّتهم الآن "تنييئ" الطعام وليس طبخه.

القصّابون كذلك، أصبحوا شعراء. بمجرّد الضغط على لفظة "ذبح" تُذبح ألف دجاجة في دقيقة، وينتف ريشها في ثلاث دقائق، وتفرغ أحشاؤها في خمس دقائق.

سار أفلاطون بين أنهج مدينته الفاضلة، وشاهد من الصور الشعرية ما يقشعرّ له الذهن. رأى عربات هضمت الخيول التي كانت تجرّها، وحوّلتها إلى محرّكات، ثمّ رآها تسير خلف بعضها البعض في طرق متشابكة، وسمع صهيلا عجيبا للخيول المعجونة، وشاهدها تشرب من مياه مسمومة، يستخرجها الإنسان من مخلفات الحيتان والديناصورات.

شاهد حرّاس المدينة يسرقون من السماء بعض النجمات، ويلصقونها على أكتافهم. وشاهد الكهنة يغمسون ريشاتهم في السماء، ويرسمون دموعا على خدودهم.

شاهد أشخاصا غامضين، يضعون نظارات سوداء، يضغطون على زرّ فتشرق الشمس، ثمّ يضغطون على زرّ آخر فتنطفئ الشمس. ثمّ شاهدهم يضغطون على زرّ فتنزل الأمطار، ثمّ يضغطون على زرّ آخر فتطلع الأعشاب من الأرض.

قال أفلاطون لنفسه، وما كانت تفهمه في مدينته سوى نفسه:

– لو أقصّ ما أرى على أبناء زمني، سأتّهم بالشعر.

بحث طويلا في مدينته عن المنطق، فلم يجده، لا في البشر ولا في الحجر ولا في الشجر...

كان سيصرخ بأعلى صوته:

– كفّ عن الشعر أيها الإنسان.

لكنّه تذكر أنّ وجوده الآن في مدينته، هو في حدّ ذاته مجرّد فكرة شعرية.

لم يكتشف الإنسان في تاريخه سرّا أعمق من الشعر في التعبير عن آلامه وأحلامه، فمنذ نصوصه الأولى التي حاول أن يفسّر بها العالم، وحاول أن يفهم ذاته، والإنسان يقيم على هذا الكوكب الأزرق إقامة شاعر، قبل أن يفكّر في وضع قوانين لتلك الخيالات، ويحوّلها حقائق منزّلة، وينضبط لها في المربّع الذي هندسه لوجوده، وسمّاه مدينة، ثمّ حرصا منه على إبعاد كلّ شبهات تمس حقائقه بنار الشعر، طرد الشاعر من مدينته، وانتهى مجرد كائن يقيني بارد.

إنّ هروب هذا الكائن اليقينيّ من الشعر هو هروب من الهاوية التي تنفتح في ذاته، هروب من الأسئلة التي تجلده، هروب من فردانيته وإحساسه بالاختلاف عن الجماعة. وهو لم يكتف بهروبه من الشعر، بل حاول أن يروّضه، ويدخله في قوالب يقينياته، تماما كما روّض أجداده الأوائل الكلاب البريّة، وحوّلوها حراسا لقطعانهم. لكن الشعر الحقيقيّ ظلّ مستعصيا عن الترويض، يعوي تحت القمر، ويملأ ليل الكائن اليقينيّ بالخوف والشكّ والهواجس.

إنّ خوف الإنسان العادي من الشعر لا يعادله سوى خوفه من الجنون ومن مسّ الشياطين، إنه شيء غامض يخرّب طمأنينته، ويعيده إلى أسئلته الأولى التي هرب منها.

يقول الشيخ لابنته التي يخاف عليها من نسمة الهواء:

– لا تعبري النهج الذي يسكنه الشاعر.

– والنهج الذي يسكنه بائع الأفيون، هل أعبره؟

– لا خوف عليك من بائع الأفيون، فأنت تعرفين خطورته، لكنّ الشاعر يروّج أفيونا سريا، لا تقدّرين نسبة خطورته، إنه يبدأ بوصف ابتسامتك، وينتهي بوصف دمعتك.

تقول أرملة لابنها الوحيد، الذي يتهيأ للذهاب إلى عمله:

– احمل مطريّتك يا ولدي، فإنّ السماء تُمطر شعرا.

إنها تخاف على أفكاره البيضاء، التي غسلتها بالصابون جيدا، ومسحت عنها تكاميشها بالمكواة، من أن يبلّلها الشعرُ، ويحوّلها أفكارا مجعّدة، ستحوّل هيئة ابنها الأنيق إلى هيئة صعلوك، لا يصلح للعمل في الإدارات.

خوف الإنسان العادي من الشعر لا يعادله سوى خوفه من الجنون والشياطين، إنه شيء غامض يخرب طمأنينته

حتى الحكومات البراغماتية المنضبطة تحرص على إبعاد مواطنيها عن مصادر الشعر، أكثر من حرصها على إبعادهم عن مروّجي الأفيون. هي تعرف أنّ مؤثرات الأفيون يمكن علاجها بالحقن المهدّئة والعلاج النفسيّ، لكن مؤثرات الشعر لا علاج لها أبدا.

إنّ المواطن المصاب بالشعر تظهر عليه أعراض التأمّل في الأشياء الزرقاء الغامضة، عوض التأمل في ملفات الحسابات البنكية، وهو يحرص على اكتشاف ما تحت فساتين البنات، أكثر من حرصه على اكتشاف الكواكب الأخرى، ولو عاتبته على ذلك فسيسكتك بطلقة من مسدس الاستعارات الذي يثبّته على أذنه. وسيقول لك: إنّ السفر إلى ليلى لا يعادله السفر إلى كواكب الكون.

كبار المفكرين في العالم بمن فيهم الحمار يعرفون أنّ كلام الشاعر صحيح، فالأموال الطائلة التي صُرفت على بناء مشروع الرحلة إلى القمر كانت تكفي لإطعام سكان الكرة الأرضية ربع قرن من الزّمن. وفي النهاية: ماذا جنى الإنسان من هذه الرحلة؟ إنها لم تكن سوى استعراض زائد أمام أخيه، الذي يلعب أمام بيته بصواريخه الصغيرة.

من غرائب هذا الإنسان أنه يفكّر في إعمار الكواكب الأخرى، وهو يخرّب كوكبه.

هل رأيت إنسانا يخرّب بيته ويعمّر بيوت الآخرين؟

لا أتصوّر أنّ الشاعر ضدّ الحلم بالكواكب الأخرى، بل إنّ التهم القديمة التي كانت تتعلق به أنه كثير الحلم بالأقمار والنجوم، لكنّ الشاعر يحبّ ليلى وإليزا أكثر من حبه لنيبتون والمرّيخ، وهو يرى أنه من العيب أن يصرف الإنسان أطنانا من الذّهب لأجل السفر إلى كوكب رمادي، بينما ليلى تنام بلا غطاء في الجنوب، وإليزا حزينة في الشمال، لأنها طلبت من حبيبها باقة ورد، وهو منشغل عنها بإدارة حديقته.

أتصوّر أنّ الإنسان سيواصل هروبه من الشعر، هروب العاشق من حبّه القديم، وفي هروبه سيخترع لنفسه شعرا آخر يتلاءم مع رغباته وهواجسه الجديدة.

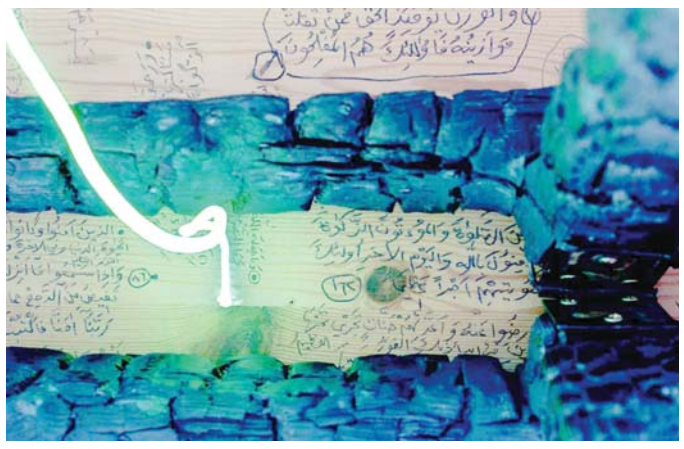

لا خوف من الشعر (لوحة للفنانة هناء مال الله)

ينشر المقال كاملا على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية